حول مقال فى جريدة المصرى

عقدة أوديب وأثرها فى الاجرام

بقلم

محمود الراوى

فى شهرى يناير وفبراير سنة ١٩٤٧ نشرت جريدة المصرى سلسلة من ست مقالات بقلم الأستاذ الكبير محمد فتحى بك عن مركب أوديب وأثره فى الدفع إلى الجريمة . وما كنت لأتعرض لأبحاث من هذا النوع تنشرها جريدة المصرى لنشر الثقافة العامة على الجمهور ، ولكن كل من قرأ هذه السلسلة لا بد قد لاحظ تعمقاً علمياً كان المفروض أن يقتصر على الأخصائيين . وقد اهتممت بملاحظة رد الفعل المؤسف الذى أحدثته هذه السلسلة عند الجمهور غير المثقف . وحالة السخرية وعدم التصديق للعلوم النفسية والتحليل النفسانى على الخصوص — وهو تفاعل طبيعى عند الفرد حيال الشىء الذى لا يفهمه — ولذلك رأيت أن أنقل مجال البحث إلى مجلة علمية محترمة مثل مجلة « علم النفس » حفظاً لمكانة هذه الأبحاث ومنعاً من إحداث رد فعل آخر .

ومركب أوديب هو أحد الأركان الهامة فى نظرية سيجموند فرويد ، وقد سبق أن تحدثت عنه ببعض التفصيل منذ عامين ونصف فى مجلة « الرياضة البدنية » عند ما تعرضت لنقط الضعف فى « جدول » فرويد التحليلى . والصورة التى بين أيدينا الآن ، من أن عدم انحلال المركب فى سن الطفولة قد يؤدى إلى الجريمة ، هى من وضع الكسندر[١] .

وتبعاً لهذه الصورة يفترض الكسندر أن المركب يبقى فى الطفل بعد سن الخامسة (يقول فرويد بأن المركب ينحل فى الأحوال العادية فى سن الرابعة أو الخامسة نتيجة « لمركب خصاء » أى عند ما يخاف الطفل أن تنكشف لأبيه رغبته الجنسية نحو أمه فيعاقبه أبوه بتجريده من أعضائه الجنسية) وعلى ذلك يبقى معه الشعور بالإجرام حيث أنه يعلم عند ذلك أن رغبته الجنسية نحو أمه من المحرمات . وهذا الشعور بالإجرام يؤدى إلى إحدى نتيجتين : ١ — إما أن يرضى نزعات مبدأ اللذة أو الأيد

(١) Alexander & Healy: The Roots of Crime, 1935

das Es بإيجاد رموز لاشعورية للجريمة ، ٢ — وإما أن يرتكب من الجرائم ما يعاقب بسببه عقاباً يعتقد هو فى قرارة نفسه أنه يستحقه .

وقبل أن أبدأ بحث هذه النقطة أستميح القارئ عذراً للتطويل الذى سأضطر إليه . وهو توسع ضرورى لتوضيح ما أريد أن أوضحه باعتبارى من الأشخاص الذين لا يكتفون بالتسليم بنظريات فرويد وحدها .

والواقع إننى واحد من القلائل الذين أسعدهم الحظ بدراسة تعاليم كارل يونج وهو الطبيب النفسانى الفذ الذى ظل يعمل مع فرويد ويساير نظرياته إلى أن خشى الأخير أن يستلب منه مكانته فجحده وتنكر له . وأنا وإن كنت أميل إلى الارتكاز على مكتشفات يونج وطريقته فى التأويل إلا أننى — ككثيرين — لا آخذها كما هى دون تفكير . وأن الباحث المدقق يستطيع أن يصل إلى الحقيقة إذا لم يحاول أن يفسر كل شىء بفرض واحد أو أن يحصر كل ما يراه من الاضطرابات النفسية فى دائرة واحدة كالدائرة الجنسية أو الذاتية أو الغدد الصماء أو غيرها .

يقول فرويد إن انحلال مركب أوديب يحدث حوالى سن الرابعة وعند ذلك ينفصل جزء من الذات das Ich. أو بعض مكوناتها لتتحول هذه المكونات إلى « الرقيب الأخلاقى » وهو ما يسميه بما فوق الذات Ueberich (١).

وأبحاث كلاين الأخيرة تجزم بوجود شىء مشابه لما فوق الذات فى الطفل قبل أن ينحل مركب أوديب(٢). ومعنى ذلك أن المثل العليا أو « الضمير » أو « الرقيب » يكون موجوداً على هذه الصورة بين الثالثة والخامسة ، فلا ينحل المركب إلا ويكون الطفل قد أصبح عنده « ما فوق الذات » من نوع معين ليصير نواة للضمير الواعى وتعاليم النظام والمجتمع التى تهضمها الذات فيما بعد . وبهذا تتم مرحلة النمو النفسانى للشهوة Libido وعناصرها .

وايزاكس هى الأخرى قد وجدت ميلا غريزياً للطفل نحو التأدب ، خارجاً عن تأثير الأبوين وتعاليمهما وخارجاً عن تأثير المجتمع(٣) ، مما يؤيد أبحاث كلاين .

هذا عن طريقة انحلال مركب أوديب الفرضى ، فليس من اللازم أن يكون بقاء هذا المركب بدون انحلال داعياً إلى تكوين نزعة إجرامية أو مضادة للمجتمع

(١) Freud: Das Ich und das Es, 1923

(٢) Klein: The Psychoanalysis of Children, 1932

(٣) Isaacs: Psychological Aspect of Child Development, 1935

فى نفس الطفل ، فان الميل للتأدب كما تقول أيزاكس غريزى ، والتعاليم التى يفرضها الوالدان والمجتمع على الصغير لا تتعدى التفاصيل الفرعية .

فإذا سايرنا فروض فرويد إلى نهاية الشوط نرى أن تكوين ما فوق الذات وحده لا يكفى ، فإن هذا العنصر النفسانى يختفى بعد مدة معينة ولا يعتبر مسئولا عن «الرقيب» الذى يصاحب الشخص طول حياته فى صورة الضمير . وأن إمعان التفكير لا بد أن يقودنا إلى أن ما فوق الذات وحدها لا تكفى كرادع للنزعات المضادة للمجتمع — فيما عدا الجرائم الشاذة التى يعرفها حتى البدائيون (الذين تكون ما فوق الذات عندهم ضعيفة أو ملتوية أو معدومة) ، وهى أكل اللحم البشرى وقتل الأب والأخ والأم ، والفحش بالأقارب . هذه هى الجرائم التى تقوم ما فوق الذات — طبقاً لتصوير فرويد — بالحيلولة دونها .

وعلى ذلك فلو منع مركب أوديب من الانحلال فلا يعنى هذا أن ما فوق الذات لا تظهر . فاذا فرضنا أنها لم تظهر فعلا فيجب أن نتوقع أن يكون الطفل مجرماً من صغره ومضاداً للمجتمع بطبعه وبهذا يخرج من حالة الاختلال العصبى الوظيفى الذى نريد أن نحصر تفكيرنا فيه ، أى أنه لا يكون neurotic وإنما psychopath وذلك على اعتبار أنه لا يوجد ما يردع حتى تلك الجرائم الشاذة التى سبق وصفها .

وهناك عدد من الباحثين النفسيين لا يتفقون مع فرويد فى حقيقة مركب أوديب بالوصف الأساسى (رغبة جنسية موجهة نحو الأم مصحوبة بكره نحو الأب) ، فان رانك مثلا يصرح بأن مركب أوديب ليس وحدة قائمة بذاتها ، وينادى بضرورة التمييز بين الرغبة فى الأم وبين الكره الموجه نحو الأب . أما الرغبة فى الأم فهى عبارة عن أمنية للاتحاد مع الأم مثلما كان الطفل متحداً معها قبل أن يولد . أى أن الطفل يعتبر نفسه جزءاً منها ، ولا يريد الانفصال عنها لذلك السبب . وهذه الرغبة هى أقصى ما يستطيعه الطفل عملياً فى طريق الاتحاد مع الأم أو تصوير اتحاده المادى معها[1] .

بل إن عدداً كبيراً من الباحثين قد أنكر وجود مركب أوديب إطلاقاً ، مثل مالينوفسكى[2] وبارو وساتى وميد . ولعل رأى بارو هو أقربها إلى ما نعنيه هنا ، فهو يتفق مع آراء يونج فى نمو الطفل النفسانى (إلى حد ما) . فبارو ينكر ضرورة تكون

(١) Rank: The Trauma of Birth (Eng. tr.), 1929

(٢) Malinowski: The Father in Primitive Psychology, 1927

مركب أوديب فى كل طفل ، ويفترض وجود « مرحلة فكرية ابتدائية » Primary subjective phase مماثلة لمراحل التعرف الفكرى المتتابعة التى أثبت يونج وجودها من قبل ، ولكنه يضيف إلى هذا أنه فى تلك المرحلة الفكرية الابتدائية يعتقد الطفل أن أمه جزء منه نفسه ، ويفسر بارو هذا بأنه فى تلك المرحلة (فى خلال الأربع سنوات الأولى) لا يستطيع الطفل أن ينظر إلى ثدى الأم على أنه جزء منفصل عن جسمه هو . ويقول الباحث أيضاً إن هذه العلاقة لا يجب أن نعتبرها جنسية بأى حال(١) .

وهناك شاهدة قوية تثبت أن مركب أوديب ليس من الضرورى أن يمر بمرحلتى التكوين ثم الانحلال عن طريق الكبت الجنسى لكى يصبح الشخص طبيعياً من الوجهة النفسية ولكى يظهر عنده الشعور بالمسئولية الاجتماعية . فان القبائل البدائية التى تمتاز بحرية جنسية تامة بين الأطفال والكبار لا محل فيها لحدوث مركب أوديب ولا لكبت جنسى من أى نوع ومع ذلك لا يحول هذا دون شعور الشخص بمسئوليته الاجتماعية (رغم أنها مسئولية بدائية تتفق مع مستوى القبيلة) . وهذه الحالة بالذات موجودة بين سكان جزائر تروبريان .

وحتى هيلين دويتش ، وهى من أتباع فرويد المتحمسين وكانت تلميذته واشتغلت معه عدة سنوات ، تعترف بأن نظرية مركب أوديب يمكن أن تفسر ناحيتين متعاكستين لا تتفق إحداهما مع الأخرى : « فمثلا يمكن أن يكون تعرف الفتاة على نفسها فى أمها معناه أنها بدأت تتخذ مكانها فى الحياة كامرأة ، ويمكن أن يكون معناه أنها تعانى كل مصاعب مركب أوديب من الوقوف فى طريق رغباتها النسائية . وبقاء حالة التعرف هذه يمكن أن تشير إلى أنها تنمو نمواً نفسياً طبيعياً متشبهة بأمها » ويمكن فى نفس الوقت أن تشير إلى العكس(٢) .

ولعل الميل إلى عدم تفسير العمليات النفسية بفروض جافة مثل مركب أوديب وغيره راجع إلى أن هذه الفروض يمكن أن يفسر بها كل شىء ، ويفسر بها ضدان متعاكسان كما يتضح من كلام هيلين دويتش نفسها . والذى يقرأ تفسير فرويد النظرى لميكانيكية حدوث مرض البارانويا لا يملك إلا أن يلاحظ كيف أنه يفسر أعراض المرض المتعددة الأشكال والألوان بواسطة جملة واحدة هى « أنا أحب هذا

(١) Burrow: The Biology of Human Conflict, 1937

(٢) Deutsch: The Psychology of Women, vol. I, 1946

الرجل » ، فبتقليب هذه الجملة بطريقة خاصة يجعل منها سبباً فى توهمات الخوف من الناس ، وبتقليبها بطريقة أخرى يفسر بها توهمات حب الناس ، وبطريقة ثالثة نراه يؤكد أنها هى سبب الغيرة المرضية فى المريض — سواء كانت من امرأة أو من رجل . بل إنه راح يوضح بها السر فى توهمات العظمة التى نشاهدها فى حالات البارانويا أحياناً .

ويقول جوتمان : « من الخطر محاولة البحث عن أسباب المرض فى الماضى البعيد من حياة المريض قبل أن يمرض ، لأن ذلك التعمق فى الماضى قد يقود الضحية (المريض) فى طرق تتفق فقط مع معتقدات الطبيب السابقة ، أو قد يتسبب فى تفسيرات أو مواقف أو مشاكل تكون عامة إلى حد أنها تصير بدون قيمة . فالتعليلات النفسية من نوع مركب أوديب أو مركب النقص تفسر كل شىء وعلى ذلك فهى لا تفسر شيئاً على الإطلاق . وفى الحقيقة لا يزيد التفسير بهذين التعليلين على تفسير مرض الشخص بأنه نتيجة ولادته ، على الرغم من أن ولادة الشخص تمتاز عن هذين الفرضين بأنها حقيقية ومعروفة التاريخ ! » (١).

ومركب أوديب مبنى على فكرة بسيطة وساذجة ومع ذلك بديهية ، وهى أن الشىء الممنوع هو الشىء المرغوب . ولما كان فرويد رجلا منبسطاً Objective extravert(٢) وموضوعياً فى تفكيره (أى مادياً أو حسياً بالتعبير الدارج) فقد كان أول ما يخطر له فى هذه الحالة هو تصور علاقة أثيمة (خيالية) فى الطفل نحو الأم . ويظهر أيضاً أن فرويد — بطريق التعميم — خرج من هذه الفكرة البسيطة إلى فكرة أن الشىء المرهوب هو الشىء المرغوب . ومن هنا كان المجال متسعاً أمامه لإدخال عوامل الصادية (مكبوتة أو مباشرة) والقسوة والرغبة فى القتل داخل فرضه الأساسى .

وفى الولايات المتحدة قوبلت آراء فرويد بالإعراض نظراً لتعنته فى الضغط على نقطة « مركب أوديب » . وحتى بعض الأطباء التابعين لفرويد فى الولايات المتحدة (وربما فى انجلترا) يميلون إلى التحرر من كثير من آرائه التى لا تقبلها الشواهد الاكلينيكية أو التعليل المنطقى العلمى . والواقع أن عدداً كبيراً من المحللين النفسيين المعاصرين يصرحون بأن أكثر « الصدمات الجنسية النفسية » Psychosexual traumas ،

(١) Guttman & Curran: Psychological Medicine, 1945

(٢) سمحت لنفسى باستعمال طريقة يونج فى تصنيف الناس بحسب أنواعهم النفسية للتعرف على نوع شخصية فرويد من كتاباته .

التى يقول فرويد بضرورة حدوثها لكى يتسبب الاضطراب النفسى ، ليست إلا خيالا فى عقل فرويد ولا علاقة له بالحقيقة . (هذا لا يمنع من أن تلك التفسيرات الفرضية وان كانت خاطئة فى عملية التفسير ذاتها وفى بعدها عن الواقع النفسانى إلا أنها تستعمل بواسطة اتباع فرويد فى العلاج بنجاح مناسب . كما يستعمل أتباع يونج وميير وأدلر طرقهم الخاصة فى العلاج) .

ولنفس السبب (أى التعصب للتفسير الجنسى فى كل شىء) اضطر بروير أن يترك فرويد بعد أن وضعا معاً كتابهما فى علاج مرض الهستريا .

* * *

لم أكن أود أن أطيل فى شرح هذه الناحية لولا أنها ضرورية لتفهم النضال الشديد الذى يقوم به أنصار فرويد لنشر مبادئه . وهو نضال يدل على عملية «تعويض» نفسانى إذ أنهم كلما تقدم بهم البحث فى هذه المبادئ كلما اعتقدوا ببعدها عن الواقع وهم لذلك يقومون بمحاولات مضادة لتدعيمها حتى لا تسقط وتنهار .

وليس من الضرورى أن يرغم الإنسان على الاعتقاد بتدنيس « الطفولة البريئة » إلا إذا كان من أنصار فرويد المتحمسين . فلو نظرنا إلى التفسيرات الأخرى الأكثر فائدة والتى سردتها سابقاً للتدليل على أن ما يراه فرويد رغبة جنسية نحو الأم قد يكون فى الحقيقة رغبة بريئة فى القرب منها أو من ثديها . لما اضطررنا إلى تجريد الطفولة من شىء من جمالها ولكنا فى ذات الوقت أكثر قرباً من الواقع . ولعله من الظريف أن الذين يحتجون على تفسير فرويد الجنسى بأنه غير معقول يجدون رداً سريعاً من أنصار هذا فى أنه « لا يشعر الطفل بالرغبة الدنيسة لأنها مكبوتة فى اللاشعور » . وإنى موقن أن اللاشعور كما يراه أتباع فرويد قد تحمل من الآثام الجنسية والأخطاء العملية أكثر مما يطاق .

* * *

والآن وقد أيدنا أن مركب أوديب فرض خيالى يتفق مع أفكار فرويد وحده ، فاننا قد تركنا فراغاً فى كيفية حدوث النزعة إلى الإجرام كان يملأه هذا المركب ، وعلينا الآن أن نملأه بذكر العوامل النفسية التى تقود الطفل إلى دوافع الجريمة .

فإذا نحن تركنا الوراثة جانباً ، نجد أن عدداً لا بأس به من المجرمين من ذوى الشخصيات المريضة Psychopathic وهؤلاء هم الذين نرى منهم ما يسمى بالمجرم العائد ، وهم على نوعين : نوع تظهر فيه نزعات خاصة إذا أضفنا إليها بعض

الأعراض الأخرى تصبح صورة مطابقة لمرض البارانويا ، ونوع تكون له شخصية شاذة بعيدة عن المستوى الطبيعى فى تكوينها وتصبح مدمنة على محاربة المجتمع أى تصبح إجرامية بالطبيعة .

وقد فحص جلوك Glueck ٦٠٨ سجيناً من مساجين سجن سنج سنج ، ووجد أن نسبة ذوى الشخصيات المريضة فيهم تصل إلى ١٩٪ وهى تدل على أن المجرمين العائدين يكونون نسبة لا بأس بها وعالية نوعاً ، وقد قام كل منهم بأعمال متكررة معادية للمجتمع وكانوا جميعاً على غير ما يرام فى حياتهم المدرسية ولم يكونوا يقومون بعمل مع الرغبة فى إتقانه. وظهر أيضاً أن هؤلاء كانوا غير طبيعيين فى طفولتهم وأنهم كانوا يعصون كل محاولة للسيطرة أو الإصلاح سواء فى البيت أو المدرسة أو المجتمع .

وفى أوائل القرن العشرين ، عند ما كان الاهتمام زائداً بطرق بينية الحديثه فى قياس الذكاء ، قاموا فى الولايات المتحدة باحصاءات واسعة النطاق لتقدير ذكاء عدد كبير من الشبان والأطفال النازعين إلى الإجرام ، فكانت نسبة كبيرة التغير وتراوح عدد البلهاء وناقصى الذكاء منهم بين ٢٥٪ و ٩٠٪ فى بعض الجماعات التى أحصيت .

أما الأشخاص المصابون باختلال عصبى وظيفى — وهم الذين يهموننا فى هذا المجال — فقد أثبت الإحصاء الذى قام به كل من برومبرج وثومبسون أن هؤلاء كانوا ٩و٦٪ فقط من كل المساجين الذين فحصاهم ، وكان عددهم ٧١٠٠ سجيناً . وهذه نسبة صغيرة بغير شك ، إذ أن عدد المصابين باختلالات عصبية وظيفية فى المجتمع المتمدين يزيد عنها بكثير ، مما يدل على أن الاختلالات عادة تسير فى طرق أخرى غير طريق الجريمة . والذى نشاهده هو أن المريض بمرض وظيفى من هذا النوع يفكر فى الانتحار أكثر مما يفكر فى القتل . ومن هذه النسبة القليلة التى تفكر فى القتل تكون الغالبية العظمى هى من المصابين بالهستريا من دون الاختلالات الوظيفية الأخرى .

وعلى كل فإن كل جريمة لها أسباب « وأشكال » نفسية متعددة تحتاج إلى الفحص من الناحية التحليلية بما يتفق مع كل حالة ، وإلى تقدير الظروف التى أدت إليها .

والدكتور سادلر يقرر فى رسالته الأخيرة أن النضال الجنسى الذى يحتم فرويد وجوده فى الطفل ويقول إنه هو المسئول عن الأطوار الإجرامية فى حياة الشاب ،

لا يوجد له ما يؤيده فى رأيه، وذلك بناء على أبحاثه الشخصية التى دامت قرابة أربعين عاماً (١).

ومن المهم أن نلاحظ أن آراء أنَّا فرويد الحديثة فيها اعتراف بأنها لم تستطع أن تجد أساساً مادياً لهذا الافتراض الجنسى ، فى الأطفال الذين يعتقد والدها سيجموند فرويد أن « حياتهم الجنسية » هى التى تقرر إصابتهم بالاضطراب العصبى الوظيفى أو الحالة الدافعة إلى الجريمة . وهذا التصريح من ابنة فرويد نفسه له قيمة خطيرة إذ يدل على أن الأساس الذى بنى عليه والدها ليس ثابتاً بالدرجة التى يحتاجها البحث العلمى السليم ، وذلك بسبب تصميمه الشديد على تفسير كل شىء بدوافع جنسيـــة .

ولعله من الظريف فى هذا الخصوص أن فرويد يفسر حب الذات بأنه « شهوة جنسية متجهة نحو الشخص نفسه Ego-libido فى حين أن ألفرد أدلر (الذى يقول بأن الرغبة فى السيطرة ، أو حب الذات ، هى الدافع الأساسى فى كل تطور نفسانى) قد يفسر حب الرجل للمرأة بأنه بعض عناصر حب الذات التى انفصلت من الذات واتجهت نحو المرأة !

والآن لنستعرض ما يقوله العلامة يونج فى الموضوع .

فيونج قد فصل « الشهوة » من معانيها الجنسية وأعطاها معنى عاماً أميل أنا إلى تسميته بالعربية « الدافع الحيوى » . وهذا الدافع الأساسى هو طاقة نفسية لا هى بالجنسية ولا هى بالأنانية وانما محايدة ، وقد تظهر فى صورة جنسية أو أنانية أو فى صورة الاثنين معاً أو غيرهما . وكذلك لم يعترف يونج بوجود صراع بين الذات والشهوة أو بين الذات و « الدافع الحيوى » بالصورة التى فعلها فرويد من قبل ، على اعتبار أن الميل إلى التأدب (كما سلف إيضاحه) غريزى ولا يحتاج إلى طاقة كبيرة وإنما إلى مجرد القيادة البسيطة من الوالدين لكى يسير الطفل فى الطريق الطبيعى (٢) ولكنه بيّن أن الصراع يكون بين عناصر من النفس سهلة التهيؤ وعناصر صعبته . ومعنى هذا أن

---

(١) Sadler: Modern Psychiatry, 1945

(٢) من الأمور الملاحظة والتى شاهدتها فى أطفال عديدين بين سن الثالثة والخامسة ، أن الطفل يشعر بحاجة إلى التشبه بالبيئة التى حوله فى نواحى العطف والتأدب وحب الآخرين ، دون أن يرغم على ذلك بطريق مباشر . وغالباً ما يقول الطفل ويفعل أفعالا من هذا النوع لم يكن الأبوان ينتظرانها لأنهما لم يسبق أن علماه إياه

الصراع يكون قائماً عند ما يجد الشخص نفسه فى بيئة لا يصلح لها فإن استطاع أن يتبيأ طبقاً لها سار سيراً طبيعياً ، وان لم يستطع فإن محاولاته المستمرة نحو التبيوء تستهلك من طاقته النفسية ما يتركه بعدها حطاماً عصبياً وتظهر عليه أعراض الاختلالات العصبية الوظيفية .

وإذا فهمنا أن الهستريا من أكثر الاختلالات العصبية الوظيفية شيوعاً استطعنا أن نرى كيف يدخل هذا فى تفسير الدوافع النفسية للجريمة .

يقول فرويد إن الاختلال الوظيفى ينشأ بسبب « عقدة » أو مركب منذ الطفولة وأن البحث عن هذا المركب هو مفتاح العلاج أو الوصول إلى سر المرض . أما يونج فهو وان كان لا ينكر بعض التأثير الناشئ فى سن الطفولة إلا أنه يبرهن على أن السبب المباشر هو صدمة أو إصابة أو صراع حديث العهد تظهر بعده الأعراض المرضية مباشرة أو تبدأ فى الظهور .

ويدلل يونج على عدم صلاحية نظرية الجنسية الطفلية بما لا يدع مجالا للشك فى صحة استنتاجاته ، ويكفى أن ننقل هنا بضع سطور مما يقوله فى هذا الصدد :

« عليك أن تهتم بازالة العقبة الحقيقية فى طريق حياة الفرد لتمكنه من التبيوء فترى كل هذا « الجدول » المتتابع من التوهمات الجنسية الطفلية يتحطم ويصبح باطلا ، كما كان عند استخدامه من قبل (فى التحليل) . ومع ذلك لا يجب أن ننسى أن الجنس يؤثر علينا بطريقة ما ، وإلى حد ما ، فى كل مكان وفى كل وقت . ولهذا أنا لا أرى أن سبب الاختلال العصبى الوظيفى يوجد فى الماضى ، وانما فى الحاضر . إنى

أتساءل ، ما هو الشىء الذى كان يريد الشخص أن يحصل عليه حينما كان طفلا (لكى ينمو طبيعياً) ولم يستطع أن يحصل عليه حتى الان ؟ « ويقصد يونج بهذا أن العقبات التى تصادف الطفل أثناء الطفولة لا بد أن تسمح له الأيام بعد ذلك لتحقيقها ، والرغبات التى تعتمل فى نفسه الطفلة لا بد أن تتكيف بنفس الطريقة بمرور الأيام . أما السبب الحقيقى فى الاختلال فهو موقف حالى لا يستطيع المريض أن يتغلب عليه الآن ، لا فى الماضى .

وإذا اهتممنا بتعرف التقدم الفكرى فى الولايات المتحدة نجد أن الاتجاه الحديث هو فى هذه الناحية التى سلكها يونج منذ وقت طويل ، فغالبية الأطباء النفسيين يعتبرون أن النضال فى نفس المريض إنما هو بين المريض وبين زملائه فى المجتمع الذين تضطره بيئته إلى الاختلاط بهم . وأن المرض الحادث إنما هو نتيجة

لصعوبة التبيوء ، وشعوره بالذلة أو التعاسة لإخفاقه فى محاولة التبيوء هذه .

فمن المعقول أن يكون المجرم المريض بهذا النوع من الأمراض العصبية ، شديد الحساسية وسريع التأثر (مما يسمى فى الطب النفسانى بنقص الضغط العصبى) بحيث أنه يستجيب برد فعل شديد لمؤثر قد يكون خفيفاً جداً . وأحب أن أستشهد بحادثة ذكرها الأستاذ محمد فتحى بك فى أحد مقالاته وهى حادثة شاب رأى جارته الشابة تهان وتعذب كل يوم بوساطة زوجها الشرير السكير فذهب إلى الزوج وقتله ؛ فأقول بأنه فى الغالب من هذا النوع شديد الحساسية . فلوكان شخصاً طبيعياً لاكتفى باقناع جارته لكى تترك زوجها الفاسد أو لنصحها بطريقة ما ليخرجها من ورطتها ؛ أو لكان قد تقدم لانقاذها وتخليصها كلما اعتدى عليها زوجها إلى غير ذلك مما يقدم عليه الشخص العادى لمساعدة إخوانه فى الإنسانية . ولكنه بدلا من أن يستجيب لهذا المؤثر المؤلم بالطرق البسيطة السابقة استجاب بأن قتل الزوج .

والواقع أننى استطعت تفسير هذه الحادثة بست احتمالات نفسية على الأقل عند الشاب الذى ارتكب الجريمة ، خلاف التفسير الذى ساقه فتحى بك فى مقاله وهو الخاص بمركب أوديب . وقد يكون أحد هذه الاحتمالات هو المسئول عن الدفع إلى الجريمة وقد يكون المسئول أكثر من واحد . ولما كان المجال لا يتسع هنا لبحث هذه الاحتمالات بالتفصيل وتطبيقها على ملابسات الحادث فإنى سأتركها على أمل أن أتمكن من بسطها فى بحث قادم إن شاء الله .

محمود الراوى